

فهو يرى أناساً مرسومين على جدار، أي رسوماً قائمة على المحاكاة، لكنه يتضرع إليهم أن يخلصوه من جسده الفاني لكي يُتاح له أن يتحول إلى نموذج فني، النموذج الذي يسميه «حيلة الخلود»، ورغبته هذه بالتخلص من جسده إنما تتضمن رفضاً للطبيعة وبحثاً في الفن عن ذلك العنصر اللاطبيعي أو الفن الخالص. ذلك ما يتضح جلياً في المقطع الرابع والأخير من القصيدة :

وحالما أغادر الطبيعة لن أخذ جسدي

من أي شيء طبيعي،

وإنما ذلك الشكل الذي يصنعه الصاغة اليونانيون

من الذهب المطروق والذهب المشع

ليبقى الإمبراطور الناعس مستيقظاً،

أو سأجلس على غصن ذهبي أغني

لسادة بيزنطة وسيداتها

عما مضى ويمضي وما سيكون

إن الشكل الذي يصنعه الصاغة اليونانيون، بما تحمله كلمة «شكل» من إبهام يبدو متعمداً، هو ذلك النتاج الفني الحضاري الذي لم يكن ليأتي لولا دخول عناصر شرقية إلى الفن البيزنطي أتاحت له الخروج على الطبيعة والتمرد على أشكالها، والاختلاف من ثم عن الأنماط الثقافية والإبداعية السائدة في أوروبا منذ عصر النهضة.

من القراءة الأولى لقصيدة بيتس سندرك أن ثمة إبحاراً تقوم به الذات نحو بيزنطة بوصف هذه الأخيرة موقعاً حضارياً متفرداً. غير أننا من القراءة الثانية سنتبين أن رحيل الذات لم يكن ليتم لولا أن بيزنطة نفسها قد قامت بإبحار آخر نحو ينابيع حضارية مختلفة عن أصولها. وسيتضح لنا من هذا أن بيزنطة ليست مجرد هدف تسعى إليه الذات، بل إن هناك توازياً بينها وبين الذات الراحلة إليها. فبيزنطة، من هذا المنظور، ذات حضارية ضخمة أتمت امتزاجها بالآخر، وذات الشاعر ساعية إلى تحقيق ما يمكن أن نسميه «بيزنطة وجودها الفلسفي والإبداعي».